الفصل العاشر

جوازات السفر

انتظرت ثلاثة أشـهر حتى حلّ عيد الفطر، الذي خلاله سـيُرجع حمزة سارة لمنزلي في عمـان، كما وعدني، عاد حمزة إلى الأردن بضـعة أيام، لكنـه لم يخبرني أبدًا بمجيئه، ثم أخذ يوسف وأنس إلى فلسطين، ثم عاد الجميع إلى السعودية، ناقضًا بذلك وعده في إحضار سارة لي، بعد أن علمت هذا الخبر من خالته أم أشرف.

اتصـلت بيوسـف، ولاطفته حتى يعطيني رقم عيادة حمزة، وعندما سمعت أخيرًا صوت حمزة على الهاتف انفجرت، قائلة:

«لقد وعدتني أن تحضر سارة! أين هي؟».

«اهدئي يا فدوى، دعيها فقط تكمل هذه السـنة الدراسـية، ليس من مصـلحتها أن تغير نظامها الدراسي في منتصف العام، وسوف أحضرها في العطلة الصيفية».

كنت أعرف أنه لن يُحضر سارة إلي أبدًا؛ لذلك كان علي إيجاد طريقة أخرى.

كانت السـاعة ٨:٣٠ صـباحًا، ولم يكن لدي وقت كافٍ لإعداد وجبة كبيرة لروان وعبود، لذلك أعددت لهما ساندويتشات جبنة، وأخذتهما معي إلى (دائرة الجوازات) في جبل عمّان، وعندما وصلت سألت الموظف أن يرشدني إلى مكتب المدير، وهناك كانت السكرتيرة جالسة على الكرسي في غرفة صغيرة أمام مكتبه.

سألتني، قائلة: «كيف يمكنني أن أساعدك؟».

فأجبتها: «أريد أن أقابل المدير لو سمحت».

«هل بالإمكان أن أعرف لماذا؟».

فكرت في إجابة مختصـرة لأفسـر لها وضـعي، فقلت: «أنا مغتربة عن البلد مدة طويلة، ولدي سؤال أريد أن أطرحه على المدير».

«حسنًا، اجلسي لو سمحت سوف أخبره بأنك هنا».

جلست مع روان وعبدالرحمن، بينما طرقت السكرتيرة باب المدير، ودخلت مكتبه، ثم أغلقت الباب خلفها، وبعد أقل من دقيقتين رجعت، وقالت لي:

«سيراك الآن».

شكرتها، ودخلت مكتب المدير، وحييته، قائلة: (السلام عليكم).

فأجابني: «وعليكم السلام. تفضلي بالجلوس».

جلست وطفلاي بقربي.

أخبرته عن المشكلات التي بيني وبين وزوجي، وأنه أخذ مني جميع جوازات سفر أطفالي، وأنا أحتاج إلى جوازات جديدة لهم.

«لا، يا سيدتي، فحتى لو كنتما مطلقين فستحتاجين إلى كتاب موافقة من زوجك للحصول على جوازات سفر جديدة لأطفالك، اطلبي من السكرتيرة أن تعطيك رقم الفاكس في هذه الدائرة ليرسل لنا زوجك هذا الكتاب».

شكرته، وقلت له: إني سأحاول الاتصال بحمزة بعد ظهر ذلك اليوم. ثم أخذت رقم الفاكس من السكرتيرة، وخرجت، كنت متأكدة أنه لا جدوى من محاولة الحصول على موافقة حمزة، لكني على الرغم من ذلك اتصلت به في السعودية، وطلبت منه أن يرسل لي كتابًا؛ حتى أتمكن من الحصول على جوازات سفر لأولادي.

ضحك من كل قلبه، وابتهج لأني لم أستطع الحصول على جوازات سفر لأطفالي.

«أتعلمين يا فدوى؟ لن أحضر سارة، أريني ماذا تستطيعين أن تفعلي!».

قال هذا، وأنهى المكالمة.

أخذت نفسًا عميقًا، وحاولت جاهدة ألا أبكي، لكن ما لبثت الدموع أن انهمرت على خدي، وبينما كنت أسترجع قوايا نظرت إليّ روان، وسألتني:

«لماذا تبكين يا ماما؟».

«لا شيء يا حبيبتي. أنا متعبة فحسب».

استقللنا سيارة أجرة، ورجعنا للمنزل، لكني لم أستسلم. فكل ما علي فعله هو أن أجد طريقة لأعيدها للمنزل بنفسي، فقررت أن أبحث عن طريقة أخرى للحصول على جوازات

سفر جديدة لسارة وأطفالي الآخرين، فعندها يمكنني الرجوع إلى فلسطين وإحضار سارة، ولن يتجرأ والدا حمزة على منعي، فسوف أشعرهما بالخوف مما أستطيع فعله بهما.

وبعد تفكير عميق قررت أخيرًا الذهاب إلى مخفر الشرطة، وأخبرهم بأني أضعت جوازات السفر، لكني كنت خائفة قليلًا ماذا سأقول لهم؟ فأنا لم أذهب من قبل إلى مخفر شرطة لأقدم بلاغًا كاذبًا، ماذا سيحدث لو اكتشفوا الأمر؟ كانت كل تلك الأسئلة تحتل كل تفكيري، لكني على الرغم من ذلك أجبرت نفسي على فعل ذلك دون خوف، كان طفلاي المسكينان، روان وعبدالرحمن، جالسين على الأرض.

«هيا يا أطفال، ارتديا حذاءيكما سنذهب إلى مكان ما».

لم يتذمرا أو يشتكيا كم هما متعبان، بل أجابا: «حسنًا يا ماما».

كان مخفر الشرطة يبعد ثلاثة صفوف من البيوت عن منزلي، كنت أستطيع المشي إلى هناك، لكن طفلاي كانا متعبين، لذلك أوقفت سيارة أجرة لتأخذنا إلى المخفر، وهناك حيّاني حارس شاب يرتدي زيًّا عسكريًّا، ويقف على البوابة الأمامية.

«كيف يمكنني مساعدتك؟».

«أريد أن أبلغ عن فقدان جوازات سفر أطفالي».

فتح البوابة، وأخبرني بأن أذهب إلى اليمين، وأصعد أول درج للأعلى، وعلى جهة يدي اليمنى في نهاية الممر سأجد مكتبًا يمكن لأي أحد فيه أن يساعدني.

«شكرًا لك».

بعد أن تعديناه كانت روان خائفة، وشدت طرف عباءتي.

«ماما، إنه يحمل سلاحًا!».

«لا تخافي! إنه رجل لطيف».

بدأ عبدالرحمن بالبكاء، فحملته، وصعدت الدرجات العشرين المؤدية إلى الطابق الأعلى، وعندما وصلت المكتب كنت ألهث من التعب، ثم رآنا رجل، وسأل عن سبب مجيئنا؟

«اجلسي على هذا الكرسي، والتقطي أنفاسك سأجلب لك ولأطفالك الماء».

«شكرًا لك».

شـكرت الله في قلبي، فقد كان لدي إحسـاس أن هذا الرجل سـوف يسـاعدني، شـرب الأطفـال بعضـ الماء، وأخذت أنا نفسًـا عميقًا؛ لأهدئ نفسـي قبل أن أخبر الرجل عن سـبب حضوري إلى مخفر الشرطة.

«سـيدي، أتيت أنا وأطفالي في عطلة من السـعودية، وبقي زوجي هناك، وقبل ثلاثة أيام كنت مستقلة سيارة أجرة إلى منزل والدي، وآخذت جوازات السفر معي لأحتفظ بها في مكان آمـن في بيت أهلي، وكنت أحمل أيضًـا أكياس مشـتريات، كان معي حقيبتـان: واحدة لأجوزة السـفر ودفتر العائلة وشـهادات ميلاد أطفالي، والأخرى لأغراضـي الخاصة، اعتقدت أن كل شـيء معي عندما خرجت من سـيارة الأجرة، لكني نسـيت الحقيبة التي تحتوي على جوازات السـفر. كانت جوازات سـفر أطفالي الأردنية والأمريكية فيها، وكان فيها أيضًـا وثيقة تحتوي على كثير من المعلومات الشخصـية عني، مثل رقـم هاتفي وعنواني وعنوان والدي، فانتظرت ثلاثة أيام على أمل أن يرجعها السائق، لكنه لم يفعل؛ لذلك أحتاج الآن إلى تقرير شرطة؛ حتى أتمكن من الحصول على جوازات سفر جديدة لأطفالي».

«هل معك هويتك الأردنية؟».

«نعم، يا سيدي».

سـحبتها من حقيبتـي، وأعطيته إياها، وبدأ يطبع على الحاسـوب جميع المعلومات التي يحتاج إليها، وسـألني عن عنواني وأسـماء أطفالي وأعمارهم؟، أخبرته فقط عن سارة وروان وعبدالرحمن، فإذا استطعت أن أحصل على جوازات سفر لروان وعبدالرحمن يمكنني عندئذ أخذهما معي إلى فلسطين، وبعد أقل من أربعين دقيقة أنهى الشرطي الطباعة، وطبع التقرير، ثم ختمه، واستخرج نسخة ثانية منه؛ ليحتفظ بها في السجلات، ثم أعطاني النسخة الأصلية.

«شكرًا لك!» بدأت أشعر بالحماسة، عندما اعتقدت أن ذلك سينجح.

«لكن قبل أن تذهبي إلى (دائرة الجوازات) لتحصلي على جوازات جديدة تحتاجين أولًا إلى إذن من زوجك».

عندما سمعت ذلك عبس وجهي، لكني لم أستطع إظهار ذلك له، وإلا فسيشك في وجود خطأ ما؛ لذلك أجبرت نفسي على الابتسامه قليلًا.

«طبعًا، طبعًا يا سيدي».

حملت عبدالرحمن، ونزلت الدرج، وروان تمشي بجانبي ممسكة الدرابزين. قررت أن أرجع إلى المنزل؛ لأني كنت متعبة جدًّا بعد كل ذلك، وأطفالي أيضًا كان علي أن أفكر في طريقة لأحصل على كتاب من حمزة.

وعندما وصلت إلى المنزل استحممت، وصليت، وحممت طفليّ، ثم جلسا في غرفة المعيشة ليشاهدا أفلام الكرتون، وذهبت إلى المطبخ لأعد وجبة سريعة، فمن المؤكد أنهما جائعان جدًّا، شعرت بالحزن نحوهما؛ لأنهما كانا يأكلان رقائق البطاطا والكعك طوال اليوم.

وبعد أن تناولا طعامهما وضعتهما في فراشيهما، وجلست لأعد خطة، وأخيرًا خطرت في بالي واحدة تمكنني من أن آخذ كتابًا بتوقيع حمزة، وإن حالفني الحظ فلن يحتاجوا إلى الاتصال بحمزة لطرح أي سؤال عليه، وهكذا ذهبت، وبحثت في بعض نسخ الملفات التي صورتها في السعودية، حتى وجدت كتابًا معنونًا إلى شركة أرامكو، وعليه توقيع حمزة في الأسفل. ثم تناولت مقصًّا حادًّا، وقصصت به توقيع حمزة، وكلي حذر ألا أقص بالخطأ أي جزء منه.

عندما استيقظت روان وعبدالرحمن في صباح اليوم المقبل أطعمتهما، وألبستهما ثيابهما، وأصبحنا جاهزين للمغادرة عند الساعة ٩:٠٠ صباحًا.

سألتني روان: «ماما، هل سنذهب إلى بيت جدتي؟».

عانقتها، مجيبة: «ليس اليوم، لكننا سنذهب في يوم آخر».

شعرت بالأسى؛ لأنه لم يتح لي الوقت لألعب معهما، أو أروي عليهما قصصًا، أو نفعل أي شيء ممتع.

أخذنا سيارة أجرة إلى وسط المدينة، وهناك اشتريت آلة طابعة من محل صغير ناءٍ، وحملتها للمنزل، وكتبت كتابًا يجيز لي تجديد جوازات سفر أطفالي، ثم ألصقت توقيع حمزة أسفل الكتاب، وهذا نص الكتاب:

خدمات شركة أرامكو

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى من يهمه الأمر:

أنا الموقع أدناه، الدكتور: أحمد حمدان، أعمل لمصلحة شركة أرامكو في السعودية. وزوجتي، فدوى محمد خير الدين، موجودة حاليًّا في عمان- الأردن لقضاء عطلة الصيف، وقد أضاعت جوازات السفر الأردنية والأمريكية ودفتر العائلة وشهادات الولادة الخاصة بأطفالنا الآتية أسماؤهم:

سارة أحمد حمدان.

روان أحمد حمدان.

عبدالرحمن أحمد حمدان.

لا مانع لدي من أن تحصل زوجتي على جوازات سفر جديدة وشهادات ولادة ودفتر عائلة للأطفال المذكورين أعلاه.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

د. أحمد حمدان

كانت هناك صيدلية على بعد نصف صف من البيوت من منزلي، حيث أستطيع تصوير بعض النسخ عن الكتاب الذي طبعته في حال احتجت إليه ثانية، أخبرت روان وعبدالرحمن بأننا سنذهب في مشوار صغير، ومشينا حتى وصلنا الصيدلية، ثم طلبت من رجل يعمل هناك أن يصور لي نسخًا من الكتاب على أمل ألا يمعن النظر في الوثيقة التي يصورها، ويطرح علي أسئلة. لكنه لم يقل شيئًا، وبعد لحظات قليلة أصبح لدي خمس نسخ من كتاب حمزة، وبعد ذلك أخذنا سيارة أجرة إلى (دائرة الجوازات) في جبل عمّان، لكن في هذه المرة لم أطلب مقابلة المدير خوفًا من أن يتصل بزوجي، ويسأله إن كان فعلًا أرسل ذلك الكتاب؟، فيكتشف ما فعلته، فماذا سيحصل لي عندئذ؟ لذلك وقفت في الطابور مثلي مثل الجميع، حتى وصلت إلى شباك الموظف، ثم أريت الكتاب وتقرير الشرطة إلى الموظف الجالس وراء الشباك.

«لكن عليك يا سيدتي، أولًا أن تحضري دفتر العائلة قبل أن تتمكني من الحصول على جوازات سفر أطفالك».

لأنني غادرت الأردن منذ زمن طويل لم أعرف أن هذه الإجراءات قد تغيرت كثيرًا، ولم تكن لدي فكرة إلى أين أذهب لأحصل على دفتر العائلة، ولم أدرك أيضًا أنه من الضروري جدًّا الحصول على واحد؛ لذلك سألت الرجل: إلى أين أذهب للحصول على دفتر عائلة؟

«هناك مكتب حكومي في ماركا الشمالية بمنطقه عمان مختص بذلك».

ماركا هي منطقة في شمال شرق عمّان، فقد كان علي أن أستقل سيارة أجرة في رحلة دامت أربعين دقيقة، حتى وصلت إلى هناك، ثم عثرت على المبنى الصغير الذي أخبرني عنه الموظف في (دائرة الجوازات)، فصعدت الدرج مع طفليّ. كانت الغرفة مليئة بالناس.

رآني شاب واقفة مع روان وعبدالرحمن في غرفة الانتظار، وعرض علي المساعدة، ثم ذهب للخلف ليرى أحدهم، اختفى ذلك الشاب في الغرفة الخلفية، ثم عاد ورافقني إلى شباك الموظف، حيث تحقق رجل يجلس وراء النافذة الزجاجية من جواز سفري الأردني، وأدخل اسمي في نظام الحاسوب؛ ليتأكد من عدم وجود أي شيء مثير للشبهة في سجلي. وبعد لحظة نظر إلي، وطلب مني العودة بعد ساعة، شعرت بالراحة والدهشة من سهولة الحصول على دفتر عائلة، لكني لم أرغب في فعل شيء يجعله يشك في ردّة فعلي، لذلك شكرته، وقلت: إنني سأرجع.

رجعت بعد ساعة إلى النافذة نفسها، وتسلّمت دفتر العائلة، إضافة إلى شهادات ولادة لي ولحمزة ولجميع أطفالي، ثم رآني الشاب الذي التقيته في المكتب الرئيس، وسألني كيف جرت الأمور؟

«بخير، لدي الآن دفتر العائلة وشهادات الولادة، وكل ما احتاج إليه الآن هو الحصول على جوازات سفر لأطفالي».

«أنا سعيد أنك حصلت على ما جئت من أجله، أنا متأكد أنك تعرفين ما عليك فعله الآن، لكن للتأكيد عليك قبل أن ترجعي إلى (دائرة الجوازات) أن تحضري صورًا حديثة لأطفالك؛ لوضعها على جوازات السفر، هناك محل على الجهة المقابلة للشارع إن أردت أن يلتقطوا لك الصور».

شكرته، وأخذت روان وعبدالرحمن إلى ذلك المحل، كنت قلقة؛ لأنه على الرغم من أنني أستطيع بسهولة الحصول على صور لكليهما، لكني لم أمتلك إلا صورة قديمة لسارة التقطت قبل عام ونصف. ماذا لو لم تقبل دائرة الجوازات هذه الصورة؟ فقد كانوا يدققون كثيرًا على هذه الأمور، ولن أجد أي طريقة لتبرير عدم تمكني مع التقاط صور جديدة لسارة.

قررت أن أخاطر، فبعد أن حصلت على ست نسخ من صور روان وعبدالرحمن أخذت سيارة أجرة إلى (دائرة الجوازات) وعندما وصلت شرحت لهم مجددًا سبب حضوري، وأريتهم كتابًا من حمزة ودفتر العائلة وصورًا للأطفال وشهادات ولادتهم.

«وشهادة حسن السيرة والسلوك؟ هل صدرت بعد؟».

«ماذا؟ أي شهادة تلك؟» حاولت جاهدة أن أسيطر على نفسي؛ حتى لا أبدو مذعورة جدًّا.

«ألم تتقدمي بالحصول على هذه الشهادة؟ أنا آسف يا سيدتي، لكن عليك أن تذهبي إلى دائرة المخابرات العامة؛ لتحصلي على شهادة حسن سيرة وسلوك قبل أن نعطيك أي جوازات سفر، أنا آسف لكنها القوانين».

أخذت روان وعبدالرحمن، واستقللنا سيارة أجرة أخرى إلى دائرة المخابرات العامة الواقعة في غرب عمّان، وهناك جلسنا في غرفة انتظار صغيرة عند مدخل دائرة المخابرات، ونظرنا من خلال نوافذ كبيرة على رجال بزيّ عسكري يحملون أسلحة، ويمشون ذهابًا وإيابًا، وكانوا يأتون للداخل من حين لآخر. وفي النهاية جاء أحدهم نحوي.

«آسف يا سيدتي، لا يمكن دخول الأطفال إلى هذه الدائرة، فهما صغيران جدًّا، وسيخافان، يجب عليك أن تأخذيهما للمنزل، وترجعي وحدك».

شعرت بالرغبة في البكاء، لكن لم يكن باليد حيلة؛ لذلك أخذت روان وعبدالرحمن إلى منزل منيرة في جبل النزهة الواقع في شرق عمّان شمال وسط المدينة. كانت تلك هي منيرة ابنة خالتي التي ترعرعت معها، وكنت متأكدة أنها ستساعدني بإبقاء ولديّ معها في أثناء ذهابي إلى دائرة المخابرات؛ لأحصل على شهادة حسن السيرة والسلوك. لكن عندما وصلت إلى منزل منيرة كان مكتب دائرة المخابرات على وشك الإغلاق؛ لذلك اضطررت إلى الرجوع للمنزل والانتظار حتى اليوم المقبل.

في مساء ذلك اليوم جاءت أمي وإخوتي إلى منزلي لزيارتي، وأخبرتهن عن كل الدوائر الحكومية التي اضطررت إلى الذهاب إليها دون أن أحصل بعدُ على جواز سفر لسارة.

عرضت علي أمي، قائلة: «سوف أعتني بالأطفال بدلًا عنك يا فدوى، اذهبي أنت، واحصلي على جواز سفر لابنتك، أنا أعرف أن حمزة لا يعطيك مالًا كافيًا، لذلك دعيني أعطيك بعض المال؛ لأتأكد أن لديك ما يكفيك».

حاولت أن أجادلها، لكنها دفعت لفافة أوراق مالية في يدي في اللحظة التي دخلت فيها سيارة الأجرة، ثم أغلقت الباب قبل أن أعترض، وهكذا اعتنت أمي بطفليّ.

وفي صباح اليوم المقبل غادرت المنزل عند الساعة ٧:٠٠ صباحًا لأرجع إلى دائرة المخابرات، وهناك كان علي أن أجتاز حارسين عند البوابة، وأن أجلس بعض الوقت في غرفة انتظار صغيرة، ثم أتت امرأة، ووضعت حقيبتي في خزانة، ورافقتني إلى حافلة صغيرة ستأخذني إلى المكتب، حيث ينفذون التدقيق الأمني.

«لكن أيمكنني المشي إلى هناك، فالمسافة ليست ببعيدة، ولا أحتاج إلى حافلة».

«لا، عليك أن تركبي الحافلة مع الآخرين. إنها القوانين».

عندما وصلت إلى المكتب الثاني أعطيتهم جواز سفري وتقرير الشرطة، قرأ الرجل الوثائق بصمت، ثم نظر إلى شاشة حاسوبه لحظة، وقال:

«آه، نعم، فدوى خيرالدين».

ناداني باسمي قبل الزواج؛ لأنه في مجتمعنا العربي تظل المرأة تحمل اسم أبيها في الوثائق الرسمية، حتى بعد أن تتزوج. ويتم ذكر اسم زوجها منفصلًا في الوثائق.

«أرى أنك عشت خارج البلد مدة طويلة؛ لذلك قبل أن تحصلي على شهادة حسن السيرة والسلوك عليك أن تذهبي إلى وزارة الخارجية الأردنية».

ذهبت إلى مكتب وزارة الخارجية، ووقفت في طابور طويل قبل أن يتمكن أحد من مساعدتي.

«كيف أستطيع أن أساعدك؟».

لقد سئمت كثيرًا من الانتقال من دائرة لأخرى وتكرير أقوالي نفسها مرة تلو الأخرى، لكني كنت دائمًا أتخيل وجه سارة، فقد رأيتها تبكي عندما غادرت فلسطين، وفكرت كيف ستمضي بقية طفولتها مع جديها بعيدة عني، وفجأة دبت فيّ الروح لأستمر.

قلت للموظف: «كنت في دائرة المخابرات، وأرسلوني إلى هنا، فقبل أن أتمكن من الحصول على جوازات أطفالي الأردنية والأمريكية عليّ أن أحصل على شهادة حسن السيرة والسلوك، لكن قبل ذلك أحتاج إلى كتاب منكم».

أخرجت الملف من حقيبتي، وأريته جميع الوثائق التي أحملها: تقرير الشرطة، وكتاب حمزة، ودفتر العائلة، وهويتي الأردنية، وجواز سفري الأردني والأمريكي. ثم أدخل اسمي ورقم ضماني الاجتماعي في حاسوبه، ودقق في نتائج البحث التي ظهرت له، وبعد دقائق عدة بدأ يطبع كتابًا دون أن يقول أي كلمة، لم أطرح أي أسئلة، ولم أفعل شيئًا إلا الانتظار، أسأل نفسي ماذا سيقول، على أمل أن تكون أخبارًا جيدة.

بعد أن أنهى طباعة الكتاب استخرج منه نسختين مختومتين:

وزارة خارجية المملكة الأردنية الهاشمية

الرقم: ٧٠٦٢.

التاريخ: ٢٠٠١/٩/٩م.

تقدم وزارة خارجية المملكة الأردنية الهاشمية أطيب التمنيات إلى سفارة الولايات المتحدة، وتتشرف بإعلامها بأن السلطات الأردنية المختصة أبلغت أن المواطنين الأردنيين الآتية أسماؤهم قد فقدوا جوازات سفرهم الأمريكية:

١- عبدالرحمن أحمد حمدان.

٢- روان أحمد حمدان.

٣- سارة أحمد حمدان.

السفارة الأمريكية في عمّان

«حسنًا، ها هو كتابك نسخة لدائرة المخابرات، ونسخة أخرى للسفارة الأمريكية، ولا تنسي يا سيدتي، أن تذهبي إلى وزارة الداخلية الأردنية».

«ما هذه الوزارة؟ أهي في المبنى نفسه؟».

ابتسم، قائلًا: «لا، يا سيدتي، لكنها ليست بعيدة، إنها تبعد أربعة صفوف عن البيوت التي هنا، إن أحببت المشي إلى هناك، أتمنى لك يومًا سعيدًا».

«شكرًا لك يا سيدي».

اتجهت إلى وزارة الداخلية بعد أن سألت الحارس عن إرشادات الطريق، وعندما وصلت إلى هناك تحدثت إلى رجل، وأريته النسختين من كتاب وزارة الخارجية، فقرأهما، وبدأ يطبع ذلك الكتاب نفسه، باستثناء العنوان الذي كان موجهًا إلى (دائرة الجوازات) الأردنية بدلًا من السفارة الأمريكية، ثم طبع منه نسختين مختومتين.

«خذي يا سيدتي، هاتين النسختين، وأعطي واحدة لدائرة المخابرات، والأخرى لـ (دائرة الجوازات)».

«نعم، سيدي. أهذا كل شيء أحتاج إليه من هنا؟».

«نعم، هذا كل شيء».

«شكرًا لك».

وعندما غادرت بحثت عن مكان لأصور تلك النسخ؛ حتى أحتفظ بها في حال احتجت إليها في المستقبل، فمشيت من شارع إلى آخر وراء الأبنية، حتى وجدت محلًّا صغيرًا، فدخلته، وسألت رجلًا جالسًا وراء آلة عدّ النقود: هل عندكم آلة تصوير؟

«نعم، عندنا».

«هل يمكنك لو سمحت تصوير نسخة من كل وثيقة من هذه الوثائق؟».

ثم دفعت له خمسة عشر قرشًا التي طلبها.

لم آكل أو أشرب طوال ذلك الوقت إلا الماء، فلا أريد أن أتوقف، وأضيع الوقت الثمين، أو أضطر إلى استخدام المرحاض، وفي النهاية أخذت سيارة أجرة إلى دائرة المخابرات.

«آه، لقد عدتِ».

تركت حقيبتي عندهم مرة أخرى، واستقللت الحافلة من غرفة الانتظار إلى المكتب. وعندما رأيت الرجل الذي تحدثت معه مسبقًا أعطيته نسخة من كل كتاب حصلت عليه من وزارة الداخلية ووزارة الخارجية.

«شكرًا لك يا سيدتي».

«أهذا كل شيء؟ أيجب علي فعل شيء آخر؟».

ابتسم لي، قائلًا: «لا، لا شيء الآن لدينا كل الأوراق التي احتجنا إليها منك. سوف نقوم بالتدقيق، ونرسل النتائج بالفاكس حالًّا إلى دائرة الجوازات».

«شكرًا جزيلًا لك يا سيدي».

كنت متلهفة إلى أن أرجع إلى دائرة الجوازات قبل أن ينتهي دوامهم؛ لذلك استقللت الحافلة، ورجعت إلى منطقة الانتظار، ثم استرجعت حقيبتي، وأوقفت سيارة أجرة. رجعت إلى (دائرة الجوازات) عند الساعة ١:٠٠ بعد الظهر تقريبًا، كنت متعبة جدًّا، لدرجة أن نفسي السريع كان يبعد النقاب عن وجهي، ثم يرجعه.

وقفت أمام شباك الموظف، وانتظرته بقلق إلى أن يجد في كومة من الأوراق شهادة حسن السيرة والسلوك الخاصة بي التي أرسلت بالفاكس.

«مممم. لا، أنا آسف يا سيدتي، لم نتسلّم أي فاكس، عليك أن ترجعي إلى دائرة المخابرات، وتحصلي على نسخة مطبوعة وتحضريها لنا».

سألته: «متى يغلق هذا المكتب؟».

«الساعة ٣:٣٠ مساء».

رجعت إلى دائرة المخابرات، وطلبت شهادة حسن السيرة والسلوك.

«فدوى خيرالدين؟ آه نعم، لقد حضرت هنا في وقت سابق اليوم، لقد قمنا قبل لحظات بإرسال شهادتك بالفاكس، ارجعي إلى (دائرة الجوازات) وسوف يساعدونك».

كنت قد استقللت كثيرًا من سيارات الأجرة ذلك اليوم، ولم يتبقَّ معي أي نقود، ولا حتى أجرة حافلة، لكني كنت مصممة أن أرجع إلى دائرة الجوازات في ذلك اليوم للحصول على

جواز سفر سارة، لذلك قررت المشي على الرغم من أن المارّة سيستغربون عندما يرونني أمشي، فقد كنت أرتدي حذاء ذا نعلين عاليين وجوارب نايلون سوداء، وبالطبع كنت لا أزال أغطي وجهي، وهكذا مشيت على جانب الطريق محاولة قدر الإمكان أن أبدو هادئة ومتزنة، كلما مرت بي سيارة؛ حتى لا يشك ركابها في أنني أهرب من عمل فظيع ارتكبته، وكلما كانت تختفي سيارة عن ناظريّ كنت أنظر للخلف لأتأكد من عدم وجود أي سيارات أخرى، ثم أنزع حذائي بسرعة، وأبدأ بالركض بأسرع ما يمكنني، وعندما كنت أسمع صوتًا بعيدًا لسيارة تدمدم على الطريق المغبر كنت أرجع، وأرتدي حذائي، وأمشي إلى أن تعبر السيارة.

استمررت على هذه الحال طوال رحلة الأميال الخمسة إلى دائرة الجوازات، وخلالها كانت قطع صغيرة من الزجاج تخترق قدمي اليمنى، فكان علي التوقف؛ لأنزعها، وكنت آخذ محارم ورقية من حقيبتي، وأحشوها داخل جوربي؛ لأوقف النزيف، ثم أبدأ الركض من جديد.

عندما وصلت إلى دائرة الجوازات التقيت الرجل نفسه الذي يجلس وراء النافذة.

«آه، أنت مجددًا لقد تسلّمنا الفاكس الذي كنت تنتظرينه».

أردت أن أقفز، وأكسر النافذة، وأخنقه، لكني تمكنت بطريقة ما من تهدئة نفسي.

«نحن على وشك الإغلاق اليوم؛ لذلك عليك أن تحضري في وقت آخر».

وفجأة أدركت الألم المروّع في قدمي، فوضعت حقيبتي على الحائط، ورفعت نقابي، وبدأت أبكي، ثم نظرت إلى أسفل، فوجدت ورقة ملونة مجعّدة على الأرض، فانحنيت لألتقطها. وبعد أن فردتها اكتشفت أنها نصف دينار، وهو بالضبط المبلغ الذي يمكنني من ركوب حافلة من دائرة الجوازات إلى منزلي.

كان علي الانتقال من حافلة لأخرى، ثم إلى سيارة تتسع لخمسة ركاب لوصولي للمنزل، وعندما وصلت رحبت بي أمي عند باب المنزل.

«تبدين متعبة جدًّا يا فدوى! هل أنت بخير؟».

فكرت في أن أخبرها بالقصة كاملة، لكني لم أعتقد أنها ستفهم الأمر؛ لذلك لم أخبرها إلا بأنني أمضيت يومًا طويلًا، ولم أحصل على جواز سفر سارة بعد.

كان البيت يسوده الحزن، وطوال المساء لم أتحدث إلا قليلًا مع أمي، فلم أتمكن من استجماع القوة للمزاح حول أداء أبناء وبنات إخواني وأخواتي في المدرسة وأمور مشابهة؛ لذلك لم أفعل شيئًا إلا الجلوس صامتة والتفكير فيما سأفعله غدًا للحصول على جواز سفر سارة.

وفي صباح اليوم المقبل عند الساعة ٧:٠٠ صباحًا طلبت بخجل من أمي أن تعطيني مالًا، لم تسأل: لماذا؟ وأعطتني ٢٠ دينارًا متمنية لي حظًّا سعيدًا، هذه المرة أخذت روان وعبدالرحمن معي إلى دائرة الجوازات في حال طلبوا أن يروهما. وهناك اضطررت إلى أن أنتظر ساعة قبل أن يحين دوري، وخلال ذلك الوقت تمشيت مع طفليّ أهز عربة عبدالرحمن، ----- وأتحدث مع روان حتى أبقيهما هادئين، ثم ذهبت إلى كشك صغير، واشتريت بعض الخبز والجبنة؛ لأطعمهما.

كنت أرتعش من الخوف طوال الوقت، وأنا أفكر في الجواب الذي سأحصل عليه هذه المرة، لكني ذهلت عندما ظهر رجل أمامي، وأعطاني ثلاثة جوازات سفر أردنية لسارة وعبدالرحمن وروان. فتنفست الصعداء، وغادرت دائرة الجوازات.

رجعت إلى المنزل، وتركت روان وعبدالرحمن مع أمي، وفي اليوم نفسه ذهبت إلى السفارة الأمريكية، وتحدثت مع امرأة تتكلم اللغتين العربية والإنجليزية، ثم فسرت لها وضعي، وأخبرتها بالتفاصيل المهمة، وأريتها الكتابين من وزارة الخارجية ووزارة الداخلية، إضافة إلى جوازات سفر سارة وروان وعبدالرحمن.

سألتني المرأة: «هل دخلت ابنتك فلسطين بجواز سفر أردني أم أمريكي؟».

«بجواز سفرها الأمريكي».

عبست قليلًا، وقالت: «سأكون صريحة معك، ولا أعتقد أنك تستطيعين إخراج ابنتك من فلسطين بجوازها الأردني فقط، فأنت تعرفين أنه لا يمكن للمواطنين الأردنيين دخول فلسطين، فهم يسمحون لك بالدخول بجواز سفرك الأمريكي فقط، وإن لم يكن لديك جواز ابنتك الأمريكي، فربما ستواجهين مشكلات في عبور الحدود».

«ولهذا حضرت إلى هنا، لأحصل على جواز سفر أمريكي جديد لسارة».

«ستحتاجين إلى كتاب إذن من زوجك؛ لأن ابنتك أقل من ثمانية عشر عامًا».

أريتها الكتاب، فدققته لحظة قبل أن تهز رأسها.

«هذه صورة. يجب أن أرى الكتاب النسخة الأصلية، وأيضًا عنوان زوجك ورقم هاتفه».

كنت مرعوبة من أن تكتشف أن حمزة لم يكتب هذا الكتاب. كانت تلك المرأة متزمتة كثيرًا. أخبرتها بأني قد أعطيت النسخة الأصلية لإحدى الدوائر الكثيرة التي ذهبت إليها في الأيام القليلة الماضية، لكنها قالت: إنها لا تستطيع فعل شيء آخر لي.

«أقترح أن تذهبي إلى السفارة الأمريكية في القدس، ربما يستطيعون أن يساعدوك».

«حسنًا، شكرًا يا سيدتي».

لم تتمكن من مساعدتي نهائيًّا، فشعرت بالاكتئاب، عندما غادرت السفارة. لكن إن كانت تلك الطريقة الوحيدة لاسترجاع ابنتي، فسأذهب إلى القدس. أخبرت والديّ وإخوتي عن خطتي، وكنت مصممة ألا أجعلهم يغيروا رأيي. لكني دهشت، عندما لم يحاولوا فعل ذلك، حتى إنهم شعروا بالإثارة، عندما عرفوا أن سارة من المحتمل أن ترجع للمنزل في أيام قليلة، طلبت من أمي أن تعطيني بعض المال، ومرة أخرى تركت روان وعبدالرحمن عند منيرة زوجة أخي، التي كان لديها أطفال في عمريّ روان وعبدالرحمن تقريبًا؛ لذلك يمكنهم اللعب مع بعضهم في أثناء غيابي بضعة أيام. غادرت في الصباح الباكر عند الساعة ٥:٠٠ صباحًا تقريبًا، واجتزت الحدود الإسرائيلية، وأخذت حافلة إلى القدس، وهناك استقللت سيارة أجرة، وطلبت من السائق أن يأخذني إلى السفارة.

وفي طريقنا للسفارة سألني السائق مرة ثانية إلى أين ذاهبة ليتأكد من أنه سمعني جيدًا؟!، فأخبرته مرة أخرى بأنني أريد الذهاب إلى السفارة الأمريكية، فعبس ونظر إلى أسفل لحظة، ثم تنهد قائلًا:

«هكذا ستجري الأمور: سآخذك للسفارة، لكني لا أستطيع أن أنزلك مباشرة أمام بابها، فلا يمكنني أن أبدو بأنني أتسبب في المشكلات، وإلا فسأفقد رخصة قيادتي. سوف آخذك إلى هناك، وأنزلك على بعد صفين من البيوت عن السفارة، ثم سأنتظرك في المكان نفسه حتى تنتهي من عملك هناك».

وعند صفين من البيوت بعيدًا عن السفارة توقف السائق، ودفعت له ١٠٠ شيكل، ثم ترجّل، واتكأ على باب السيارة.

«كوني حذرة يا أختي، فأنا قلق عليك».

أومأت برأسي، وبدأت أمشي صاعدة الشارع إلى السفارة، أبقيت النقاب على وجهي؛ لأغطي تعبي وخوفي، وعندما اقتربت من السفارة أسرعت خطاي، فكلما أسرعت بالمشي عجلت في التحدث مع السفير حول الحصول على جواز سفر أمريكي لسارة، وربما تأتي معي للمنزل في غضون أيام، اعتقدت أن كابوسي سينتهي عما قريب إن أسرعت خطاي.

وفجأة نظرت للأعلى، ووجدت نفسي محاطة بجنود إسرائيليين كان ستة منهم يقفون عن يساري وستة عن يميني واثنان أمامي واثنان آخران خلفي، أبطأت خطاي، ورفعت طرحة نقابي العليا، وكشفت عن عينيّ، لكني أبقيت فمي مغطى، ثم سمعت أصوات الطقطقة العالية للبنادق الست عشرة تستعد للإطلاق، وكانت جميعها موجهة نحوي.

استمررت في المشي ببطء للأمام، وبعد أن وصلت للسفارة رفعت يديّ.

رسمت الصورة بقلمي (فدوى)

«أرجوكم لا تطلقوا النار، جواز سفري موجود في حقيبتي سوف أخرجه، وأريكم إياه». ثم أريت الضابط الأقرب مسافة مني جواز سفري الأمريكي «أريد فقط أن أقابل السفير لأحصل جواز سفر لابنتي».

وقف جندي عند الباب وجندي آخر أخذ جواز سفري إلى داخل المبنى. وعندما عاد رافقني للداخل، وأرشدني إلى شباك الموظف، كانت الساعة ٤:٠٠ مساءً والسفارة تقريبًا خالية، ولم أجد إلا موظفة واحدة هناك؛ ولأنها امرأة رفعت نقابي كاملًا، وكشفت عن وجهي، كانت تلك الموظفة تبدو ودودة ولطيفة، فبكيت فجأة، وأخبرتها بالقصة كاملة، وكيف خطف زوجي أطفالي، ويرفض أن يرجعهم إلي، ثم ضربت بقبضتي على المنضدة، قائلة:

«أريد ابنتي! أريد ابنتي!».

«حسنًا يا سيدتي. أرجوك أن تهدئي. سوف أساعدك إن استطعت».

أصبحت تبكي معي.

«أريد أن أرى السفير».

عضّت على شفتها، وعبست قائلة:

«أنا آسفة، لكنه غادر، ولن يعود قبل يوم الإثنين. فهذه عطلة بالنسبة إلينا».

«لكني أحتاج إلى أحد ليساعدني، أرجوك، لا بد أن هناك شيئًا تستطيعين فعله».

«هل معك وثائق الطلاق؟ هل لديك حق وصاية الحضانة على ابنتك؟».

«لا، فنحن ما زلنا متزوجين».

«أنا آسفة يا سيدتي، أنا أريد فعلًا مساعدتك، لكن السفير سيقول لك الشيء نفسه، فإن لم يكن لديك حق وصاية فلن تتمكني من فعل شيء، إنه أبوهم، وله الحق في الاحتفاظ بأطفاله، ولك الحق في الحضانة لو كانوا معك، وطالب بهم».

بدأت أبكي مجددًا.

«أين ولدت ابنتك؟».

مسحت دموعي بكمي، وأجبتها: في نيويورك.

«هل ذهبت إلى نيويورك؟ ربما من الأسهل الحصول على جواز سفر أمريكي هناك» ثم فكرت لحظة، وسألتني: «لماذا لا تتحدثين مع جدها؟ ربما سيتصرف بعقلانية».

أجبتها بهدوء: «لا، لقد حاولت ذلك، لكن دون جدوى».

أعطتني بطاقتها، ووعدت أن تساعدني إن وجدت طريقة مناسبة، وكررت أسفها الشديد لكل ما حدث معي.

لم أواجه أي مشكلة مع أحد من الجنود، وأنا أنزل أسفل الشارع، وعندما وصلت إلى سيارة الأجرة سألني السائق إن كنت بخير؟، فأومأت برأسي دون أن أقول شيئًا.

السائق: «كنت قلقًا عليك بسبب العدد الكبير من الحراس هناك، لا أريد أن أخيفك، لكن الوضع في فلسطين سيئ جدًّا حاليًّا، وأيضًا لم أعرف كيف ستكون ردة فعلهم عندما يرونك مرتدية النقاب».

«ضاقت بي الدنيا، ضيق صدر وجرح قلب ودمع عين وجفاف ريق، ولم أدرِ ماذا أفعل».

جلست على الكرسي الخلفي لسيارة الأجرة، وطلبت منه أن يوصلني إلى (بير زيت). فقد كان خال لي يعيش هناك، توفي خالي من مدة، لكن زوجته وأولاده كانوا لا يزالون يعيشون هناك، وسوف يستقبلوني في منزلهم، وعندما طرقت بابهم كانت زوجة خالي مدهوشةً كثيرًا لرؤيتي.

«فدوى! أهذا أنت؟».

بعد أن سلمت عليها وعلى زوجة ابنها (موسى) استأذنت أن أستخدم المرحاض، فذهبت، وغسلت يديّ، وصليت، ثم تناولت العشاء، في الواقع كان فطورًا بالنسبة إلي، فلم أذق شيئًا منذ الصباح». أخبرتها بقصتي، وأنا أبكي من حين لآخر.

هزت زوجة خالي رأسها أسفًا، وقالت لي: «ارتاحي هنا يا فدوى، حتى يعود موسى للمنزل، فأنا متأكدة أنه سيتمكن من فعل شيء لمساعدتك».

شربت الشاي معها إلى أن وصل موسى من محل تصليح السيارات الذي يملكه.

«هل تريدينني أن أذهب معك يا ابنة عمتي، إلى بيت أهل زوجك؟ سوف أقتله إن لم يرجع لك ابنتك!».

كان موسى عصبي المزاج قليلًا، هو بالطبع لن يقتل أبا حمزة، لكن سيحصل شيء لا تحمد عقباه عندما يلتقيان.

«لا، شكرًا لك يا موسى، ليس بيدي حيلة الآن؛ لأن جواز سفر سارة الأمريكي ليس معي، سأذهب وحدي، فكل ما أريده هو أن أراها قبل أن أرجع إلى منزلي».

أمضيت تلك الليلة في بيت خالي، وفي الصباح اغتسلت، وصليت، وأكلت طعام الفطور الذي أعدته زوجة خالي؛ عائشة. ثم ودعتها هي وموسى، وحملت حقيبتي الصغيرة منطلقة إلى محطة الحافلات.

موسى: «فدوى، إن احتجتِ إلى أي مساعدة مهما كانت اتصلي بي».

كتب رقم هاتفه على قصاصة ورق، ثم ودعني.

استقللت الحافلة إلى «دار أبومشعل» وذهبت إلى منزل خالة حمزة؛ أم أشرف. وعندما

وصلت سلمت على أم أشرف وزوجها، وتحدثنا قليلًا، ثم أخبرتهما بأنني قررت أن تبقى سارة هنا حتى تنهي عامها الدراسي، فاستغربا كثيرًا، وفجأة وجدت نفسي أدافع عن قراري، وأخبرهما كيف كنت أذهب من مكان إلى مكان، محاولة أن أحصل على جواز سفر سارة، لكن دون جدوى.

هزت أم أشرف وزوجها رأسيهما أسفًا، وتجدد غضبهما على حمزة، لكن لم يكن بأيدينا حيلة في هذه المرحلة، فهو لا يستمع إلى أحد، ولا يحترم رأي كبير، ثم أخبرت الخالة أم أشرف بأنني أرغب في رؤية سارة قبل أن أرحل.

«لا أهتم بوجود والدي حمزة هناك، ولا أهتم إن كانت زوجته الثانية تعيش هناك، إنه منزل أطفالي».

أومأت برأسها موافقة، وقالت: «لكن دعيني أتصل بهم، وأخبرهم بأنك قادمة لرؤية ابنتك، فلا أريد أن يزعجك أحد، أو يمنعك من رؤية سارة».

ذهبت أم أشرف معي لزيارة والديّ حمزة، وبدأ كل منهما يلوم حمزة بسبب هذه الورطة التي وضع العائلة فيها.

فقالا: «كانت تلك فكرة حمزة، وهو المسؤول الوحيد عن كل ما حدث نحن لم نخبره بأن يذهب، ويتزوج».

وجهت نظري مباشرة إليهما، أولًا لأم حمزة ثم لأبيه، وقلت:

«ربما لم تخبراه بأن يتزوج، لكنكما لم تحاولا منعه أيضًا».

لم يتبقَّ لهما شيء ليقولاه بعد ذلك.

اكتشفت أن غادة كانت في فلسطين، لكنها لم تكن في المنزل عندما وصلت، فعلى ما يبدو قام والدا حمزة بإرسالها إلى منزل والديها؛ خوفًا من أن أؤذيها، إلا أن أغراضها كانت في إحدى الغرف، وكانت غرفة المعيشة التي تنام فيها مقفلة؛ لمنعي من التطفل، وهو في الأصل بيتي قبل أن تتزوج حمزة.

شرحت لي سارة، قائلة: «تقيم الخالة غادة في تلك الغرفة».

بقيت مع سارة مدة ليلتين، في أول الأمر كانت تقفز فرحًا في أنحاء الغرفة، وتتحدث مبتهجة؛ لأنها بحسب اعتقادها سترجع أخيرًا إلى المنزل معي إلى عمّان، وستبقى هناك للأبد، ولن ترجع هنا مجددًا، وكم كانت سعيدة لأنني أتيت أخيرًا لآخذها بعد أن بدأت تعتقد أنني لن أرجع مرة أخرى، ثم سترى روان وعبدالرحمن مرة أخرى، وأيضًا جديها الآخرين وأخوالها وخالاتها وأولادهم.

أخذتها بهدوء بين ذراعي، وأسكتها، ثم أخبرتها بلطف بأنني لا أستطيع أن آخذها معي بعد، كيف يمكن لأحد أن يُفهم طفلة عمرها ثماني سنوات أن أمها لا تستطيع أن تأخذها معها للمنزل؟ فبدأت بالبكاء، وتصرخ، وتقول: لا، لا أريد أن أبقى هنا.

وهكذا افترقنا حزينتين، وعدت إلى الأردن، وأنا أفكر طوال الوقت في وجهها الذي تملؤه الدموع والنظرة التي تقول: إنني خنتها، ولو كنت أهتم لأمرها لأخذتها معي للمنزل، ولبذلت جهدًا أكبر. ثم تذكرت ما قالته المرأة لي في السفارة الأمريكية بالقدس، ربما من الأسهل الحصول على جواز سفر أمريكي في نيويورك، ولأنه لم يُتِحْ لي أي خيار آخر، قررت الذهاب إلى نيويورك للحصول على جوازات سفر لسارة ويوسف وأنس.

اتصلت بأخي هشام المكنى بـ (سام)، الذي يقيم في نيويورك، وطلبت منه الحصول على نسخ من شهادات ولادة يوسف وأنس، ثم اتصلت بصديقتي (جميلة) في المنطقة الشمالية لنيويورك، وطلبت منها الحصول على نسخة من شهادة ولادة سارة. وبعد أن حصلت على الشهادات التي أرسلت بالبريد دون أن يطرحا أسئلة كثيرة: لماذا أريد الشهادات؟، قال لي سام: إنني أستطيع البقاء معه بضعة أيام، لم أكن قد ادخرت أي مال، لكن كان لدي بعض الحلي الذهبية كنت قد خبأتها عن حمزة؛ لذلك بعت عقدًا وقرطين، وحصلت على مال يكفي فقط لدفع ثمن تذكرة ذهاب وإياب إلى نيويورك، عرضت علي زوجة أخي منيرة أن تعتني بروان وعبدالرحمن بضعة أسابيع، وأخبرت والدي بأنني سأذهب إلى الولايات المتحدة لأحصل على جواز سفر لسارة، لم يعترضا على ذلك؛ لأنني سوف أقيم عند أخي سام، كانت تلك المرة الأولى التي أسافر فيها بالطائرة وحدي، لذلك كان علي أن أعرف طريقي في المطار.

ذهبت برحلة جوية مدتها ١٦ ساعة مباشرة إلى (لا جواردیا- نيويورك). وفي المطار التقاني سام، وأخذني إلى متجر الإلكترونيات الذي كان يديره هو وزوجته سامية. تكبرني

سامية بأربع سنين، وهي من جنسية فلسطينية، لكنها ترعرعت في الكويت، وبسبب نشوب الحرب العراقية الكويتية اضطر والداها إلى أن يعودا إلى الأردن. بقيت معهما في المتجر حتى أغلقا عند الساعة ٩:٠٠ مساءً، ثم اشترينا طعامًا هنديًّا في طريقنا للمنزل، كان من الصعب علي أن أركز على الأحاديث المملة لسام وسامية حول أحوال متجرهما، لم يكن لدي وقت؛ لهذا على أي حال، فقد كنت في مهمة، أخبرتهما بكل ما حدث، وأنه كان علي الحصول على جواز سفر لسارة حتى أرجعها للأردن. لكن لم يكن أي منهما يعرف كيف يدلني على المكان للحصول على جوازات السفر، إلا أن ابن خالة سامية كان يعيش في شقة قريبة مع صديق له فلسطيني مقيم في أمريكا، ووالداه لا يعيشان في الأردن. كان صديقه هذا قد أنهى إجراءات طلاقه أخيرًا، ومن المحتمل أن يكون لديه معلومات أفضل عن هذا النوع من المشكلات بين الأزواج.

وفي اليوم المقبل اتصلت سامية بابن خالتها الذي اتصل بدوره بصديقه، والذي اقترح أن أذهب إلى مخفر الشرطة، وأخبرهم بأنني أضعت جوازات السفر أو سرقت مني، بدا ذلك منطقيًّا جدًّا، عندما حبكت الخطة في ذهني؛ لذلك قررت أن آخذ بنصيحته، ولأنني سأخوض كل هذا العناء للحصول على جواز سفر جديد لسارة، فسوف أحاول الحصول على جوازات سفر ليوسف وأنس وعبود أيضًا، لم يكن سام يحب أن يذهب إلى مناطق عسكرية أو إلى مستشفيات، لذلك سمح لي بالذهاب مع ابن خالة سامية وصديقه اللذين تركاني أمام باب مخفر الشرطة. فذهبت إلى مخفر الشرطة مرتدية ثوبًا طويلًا ذا أكمام طويلة وحجابًا عاديًّا يغطي رأسي فقط، وكاشفة الوجه.

سأل ضابط الشرطة الذي التقيته عن سبب حضوري؟، كنت خائفة ومرتبكة، فحاولت أن أشرح له ما حدث لأجوزة السفر، لكني لم أتذكر الكلمة الإنجليزية التي تعني (ضاعوا) وقلت بدلًا عنها (سُرقوا). وبعد أن نطقت بتلك الكلمة لم أستطع التراجع عنها.

«هل لاحظت أي علامات فارقة في الشخص الذي سرق جوازات السفر، أي شيء يمكن أن يساعدنا في التعرف إليه أو إليها؟».

(مممم) ماذا سأقول الآن؟

«هل كان رجلًا أم امرأة؟ ما لون الشعر؟ العينان؟ الطول؟ أكانت هناك علامات فارقة مثل وشم غريب أو وحمة؟».

وجدت نفسي في موقف صعب، لكن فجأة خرجت من فمي أوصاف مبهمة عن السارق.

«لقد كان رجلاً، فبينما أنا خارجة من مترو الأنفاق خطف شنطة جوازات السفر من يدي، لكني لم ألقِ نظرة جيدة عليه لم يكن لا طويلًا ولا قصيرًا، وكان يرتدي طاقية على رأسه ووجهه للأسفل، هذا كل ما أتذكره».

كدت أصدق قصتي المختلقة، كان أحدهم يستمع إلى وصفي، ويرسم صورة لوجه الرجل، لكنه ظل يعبس، ويمحو، ويبدأ من جديد، ثم أخيرًا جعّد الورقة، ورماها في سلة المهملات، شعرت بيأس أن لن يعطوني التقرير، وبعد دقائق، فوجئت بأن الضابط يسلمني كتابًا بعد أن كتب المعلومات اللازمة، وأعطاني نسخة لآخذها إلى المكتب الأمريكي لخدمات الجنسيات والهجرة، طرت من الفرح، وأنا أتسلّم الورقة، ولكني لم أظهرها؛ لأني ما زلت داخل مخفر الشرطة، ولا أريدهم أن يحسوا بكذبتي، فخرجت وأنا أمشي بخطوات هادئة. وعندنا وصلت متجر أخي اتصلت هاتفيًّا على مكتب الهجرة، وحدد لي موعدًا، وكان اليوم المقبل الساعة الواحدة ظهرًا في منطقة منهاتن في نيويورك.

هذه المرة أخي سام ذهب معي، أخذنا القطار حتى وصلنا المكان، عبأت بعض النماذج، وأعطيت صورًا لأطفالي إلى سيدة تجلس وراء الشباك الزجاجي، عبست، وأرجعت لي الصور، قائلة:

«هذه صور قديمة يجب أن تلتقطي صورًا لهم مخصصة لجواز السفر، وقالت: أحضري الأطفال، وسوف نلتقط صورهم».

بدأت أبكي.

«هل أنت بخير يا سيدتي؟».

«سوف أخبرك بقصتي، فلربما يمكنك مساعدتي».

«نعم؟».

أخبرتها بزواج حمزة، وكيف أخذ الأطفال، ومنعهم حتى من زيارتي، وكيف أن سارة انفصلت عن إخوتها، وبعد أن استمعت إلى قصتي مسحت تلك السيدة دموعها، وقالت لي:

«أريد أن أساعدك، لكني لا أعرف كيف».

اتصلت برئيسها الذي سألني إن كنت مطلقة؟

«لا، نحن ما زلنا متزوجين».

«إن وضعك صعب جدًّا؛ لأن الأطفال ليسوا هنا في أمريكا، فأنت وزوجك كلاكما عليكما أن توقعا للحصول على جوازات السفر، ربما يمكنك الاتصال بالسفارة الأردنية، لقد انتقلت إلى واشنطن العاصمة بعد الحادي عشر من أيلول، لكني سأعطيك رقم هاتفهم، فربما يعرفون طريقة يساعدونك بها».

شكرتهما، ورجعت للمنزل مع سام، ثم قمت بالاتصال بالسفارة الأردنية في واشنطن، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء أيضًا، لم أكن مطلقة، ولم يكن لدي وصاية الحضانة على أطفالي؛ لذلك لم يكن لي أي حق قانوني لاسترجاعهم من حمزة لم أقل شيئًا لسام وسامية؛ لأني لم أرد إزعاجهما. لكني عرفت أنه وبغض النظر عن رأي عائلتي، عليّ أن أرفع قضية حضانة على حمزة في المحكمة، فالحصول على وصاية الحضانة كان الطريقة الوحيدة لضمان ألا يختفي حمزة مع الأطفال، ويمنعني من رؤيتهم للأبد. «قمة في الظلم والقسوة، حينما تحاول أن تسعد إنسانًا بكل ما تستطيع، بينما يكون هو السبب في حزنك وألمك».